

## عالم المحيط الهندي ودراساته

### ■ هانز غاوبه

#### 1 - توطئة :

في عام 2006م نشر بيرجن هورتن ونيكولاس بورسل **ف** مقالة جاء فيها على وجه الخصوص ما يلي: «يمكن للمقارنة النسقية بين البحار أن توحى بتصور جديد للتاريخ يمكن أن يصل إلى مستوى عالمي شمولي. والحال أن مفهوم «البحر» أو «المحيط» قد بدا هاهنا واعدأ ومهمأ بحيث إن الاصطلاح «علم [تاريخ] البحار الجديد» - Thalassology - المشتق من اللفظ اليوناني القديم الدال على معنى البحر - Talassa - إنما هو عبارة مسكوكة جديدة مناسبة للدلالة على هذا المبحث الجديد»، (هورتن - بورسل، 2006م، 723). والحق أن عبارة مثل هذه كانت ستبدو «مستحدثة» لو هي كُتبت قبل خمسين سنة من هذا التاريخ؛ وذلك لأنه كانت قد ظهرت عام 1949م النشرة الأولى لكتاب فرنان بروديل «البحر الأبيض المتوسط على عهد الملك فيليب الثاني» (بروديل 1949م). والحال أن النشرات المستحدثة المستجدة لهذا الكتاب وترجماته إلى العديد من اللغات جعلت شهرة كتاب بروديل هذا تطبق الأفاق.

■ بروفيسور من ألمانيا، جامعة توبنغن.



على أن هذا ما كان بالأمر الفجائي؛ ذلك أنه فضلاً عن موقف بروديل الموسوعي الأكاديمي العالم، فإن لغته قد ركزت في العديد من أجزاء عمله المذكور على الصلة بين البر والبحر وبين البحر والبر: «موصولة هي حياته [يقصد حياة البحر] بحياة البر، وشعر البحر أشبه شيء يكون بشعر البادية، نصفه بدوي الطبع، وبحارة البحر يمكن أن يستحيلوا إلى مزارعين بحسب الفصول. وإنه لبحر أشجار الكروم والزيتون تماماً مثلما هو بحر السفن الشراعية ذات المجاذف الضخمة، وسفن التجار المستديرة. وتاريخه ليس يمكن بأي حال أن يفصل عن تاريخ البر المحيط به، مثلما ليس يمكن فصل الطين عن يدي الطيان التي تشكله» (بروديل 1972م، 17).

الحق أن أفكار بروديل قد أسهمت إسهاماً حاسماً في التأثير على ما صار يعرف في ما بعد تحت مسمى مدرسة «الحوليات» التاريخية، كما أسهمت هي في توجيه مباحثها بقوة. على أن هذا لا يمنع من القول: إن أفكار بروديل إنما صبت في مجرى المؤرخين «المحدثين» الذين اكتشفوا فجأة ما كان بدهياً معروفاً منذ أمد: كلا، ما كانت المياه لتخالف [بين الأمم] فحسب، وإنما شأن المياه أن تؤالفَ بينها أيضاً. وهذا «الاتئلاف» [الوحدة] و«الاختلاف» [الفرقة] قد تم إظهارهما إظهاراً بيناً في كتاب هنري بيرين الذي يظل إلى حد اليوم كتاباً مثيراً للجدل: «محمد وشارلمان» (بيرين 1937م). وبهذا أمسى علم [تاريخ] البحار معرفة مشتركة بين الباحثين متشاطرة متقاسمة. ويمكننا أن نعود القهقري إلى عهدٍ قديم، حتى إلى مفهوم هيرودوتس عن الغرب والشرق، وحتى إلى الجغرافيين العرب الذين أفردوا فصلاً خاصة في كتبهم ذات الصلة بتقاسيم المحيطات شأن البحر الأحمر والخليج.

على أن دراسات بيرين وبروديل «البحرية» استندت إلى فضاء البحر الأبيض المتوسط. وقد تركا لبعض الباحثين الآخرين فرصة توسيع نظرتهمما والأخذ بعين النظر المحيط الهادي والمحيط الأطلسي باعتبارهما وحدتين تاريخيتين واقتصاديتين وثقافيتين. ونتيجة ذلك، فإنه ليس من المفاجئ لنا بالمرّة أن تكون وجهة النظر هذه قد امتدت لتشمل المحيط الهندي كذلك. وقد أعمل البعض هذه المقاربة لا لشيء إلا لأنها كانت موضوعة، وبعضهم

كان على تمام الوعي بالفوارق القائمة بين المجالين الهادئ والأطلسي من جهة، ومنطقة أو مناطق المحيط الهندي؛ وذلك لأن المحيط الهندي كان مسرحاً أقدم بكثير للاتصالات الاقتصادية والثقافية التي تعود إلى عصر ما قبل التاريخ وإلى العهود الشرقية البائدة.

## 2 - المجال والإنسان

يمكن قصر الاعتبار هاهنا على بعض أوجه «دراسات المحيط الهندي» فحسب. بداية ينبغي لنا أن نبدأ بالأسس أو القواعد أو الأركان التي هي في عداد الاثنين: المجال والإنسان. ثم بعد ذلك سوف يتم إبراز مختلف

يمكننا أن نعود القهقري إلى عهد قديم، حتى إلى مفهوم هيرودوتس عن الغرب والشرق، وحتى إلى الجغرافيين العرب الذين أفردوا فصلاً خاصة في كتبهم ذات الصلة بتقاسيم المحيطات شأن البحر الأحمر والخليج.

المقاربات المنهجية في هذا الحقل من النشاطات الدراسية. وسوف يتم نشر إطلالة نقدية مدارها على النتائج المتوصل إليها في مقالة ثانية.

والحال أن أحد أفضل المداخل إلى الأساس الذي هو المجال - أعني مناقشة امتداد ما نسميه (أو يمكن أن نسميه) «المحيط الهندي»، وأصناف أو فئات البشر والمجتمعات وتنظيمها - إنما نعثر عليه في المدخل المعنون «حالة الموضوع» الذي كتبه ميخائيل. ن. بيرسن توطئة لكوكبة مقالات

نشرها هو وأشين داس كويتا: «الهند والمحيط الهندي 1500 - 1800م» (داس كويتا - بيرسن 1987م، 1-2)، والذي يمكن تلخيصه على النحو التالي: بعد أن عالج البحث التاريخي (داس كويتا - بيرسن 1987م، 1-10)، كتب يقول: «نحن محتاجون إلى مواجهة مشكلتين إن كان لنا أن نكتب تاريخاً مقنعاً للهند وللمحيط الهندي:

أولاً: نحتاج إلى تعيين الحدود الجغرافية للمحيط الهندي.

ثانياً: علينا أن ننظر بعامة إلى المواضيع والنزوعات المشتركة، وأن نرى إلى أي مدى يمكن أن نتحدث عن وحدة في المحيط الهندي».

## الحدود الجغرافية

بقدر ما تعلق الأمر بالحدود الجغرافية للمحيط الهندي، انتهى الباحث إلى حل - «نسبياً - بسيطاً»، هذا بيانه: من رأس الرجاء الصالح في الغرب إلى القطب الجنوبي في الجنوب، ضمّ المحيط الهندي البحر الأحمر وبحر الخليج معاً؛ لكنه أقصى بكل صرامة بحر جافاً، وبحر جنوب الصين. وهكذا، يسمي المحيط الهندي المجال الواقع شمال هذه. وفي الشمال الغربي، تمتد الحدود من المدخل الجنوبي إلى قناة السويس نزولاً إلى الساحل الإفريقي الشرقي فالى رأس غولهااس، ومن هناك جنوباً إلى الحدود الشمالية للمحيط الجنوبي، وشرقاً من السويس. فأما الحدود الشمالية، فتتبع الساحل الآسيوي في كل الاتجاه الدائر حول مضيق مالايا في الحد الأقصى للجنوب الشرقي. وأما المنطقة الصعبة المُشكلة الخلافية فهي أندونيسيا. وإذا ما نحن نظرنا إلى المجال نظرة شاسعة، وجدنا أن المحيط الهندي يشمل بحار جافاً وفلوييس وتيمور وباندا وأرافورا وسيرام وحدودها التي تتبع الخط الساحلي الأسترالي من رأس لويوين في كل الاتجاهات نحو رأس يورك، ويمتد على طول الامتداد الكائن بين خط الاستواء ومالايا.

وإذ تمت الإشارة المختصرة إلى هذا الأمر، تبرز هاهنا المشاكل دفعة واحدة. ومنها أنه إذا ما نحن رحنا إلى البحر الأحمر، فإن التساؤل المطروح هو: لماذا لا نذهب أبعد من ذلك إلى البحر الأبيض المتوسط؟ وما الأمر الذي يمكن أن يقال بالنسبة إلى الحدود الشرقية؟ ... الحق أن المسافرين عبر البحر لا يعلمون شيئاً عن الحدود الاصطناعية التي رسمت هنا؛ لكننا نحتاج إلى أن نكوّن فكرة عن حدود حقل بحثنا.

والحال أن الغموض عينه يبرز عندما نحاول تقسيم المحيط الهندي إلى تقاسيم. ذلك أنه تم اقتراح تقاسيم أربعة (ريفز - بروز - ماكفرسون 1981م):

- ثمة أولاً محيط هندي شرقي يمتد من كيب تاون إلى شرق إيران.
- وثمة ثانياً محيط مستقيم شمالي حول شواطئ جنوب آسيا، ويضم بورما.
- وثمة ثالثاً محيط شرقي يمتد من مضيق كرا إلى غرب أستراليا ذهاباً

شرقاً بحيث يضم كلاً من أندونيسيا والفلبين. وثمة أخيراً، محيط جنوبي. والحق أن هذا التقسيم يعاني الكثير من جوانب الضعف، لكن هذه المشاكل الموروثة تواجه كل محاولة لتقسيم المحيط الهندي بلا استثناء.

## الإنسان والمجتمعات

وأشد تعقيداً من هذا الأمر وأكثر أهمية مسألة كيف يمكن أن ننظر إلى المحيط الهندي بوسمه «وحدة» اجتماعية - أو لربما بالضد من هذا «فرقة» لا ناظم لها وشتاتاً لا جامع له؟ للإجابة عن هذا السؤال، عاد بيرسن إلى بروديل، فكان أن كتب يقول: «من المؤكد تأكيداً نسبياً أنه يمكن اعتبار المحيط كياناً متميزاً جغرافياً متميزاً نسبياً»، لكن إلى أي مدى يمكن أن نسير على خطى بروديل، فنكتب عن عالم محيط هندي؟ ذلك أن المحيط الهندي يشمل مناطق متعددة أكثر مما يضم البحر الأبيض المتوسط من مناطق، وهو أكثر انفتاحاً منه. وسكانه يمتدون من الأفارقة إلى تجار كوجارات الكيسين. وأكثر من هذا، إلى الهند فإلى ما وراءها من أتباع كل الديانات الكبرى: الهندوس والمسلمون من مختلف الأعراق والتسميات واليهود والمجوس والأوروبيين والأهالي المسيحيين والبوذيين.

**إنّ المحيط الهندي يشمل مناطق متعددة أكثر مما يضم البحر الأبيض المتوسط من مناطق، وهو أكثر انفتاحاً منه، وسكانه يمتدون من الأفارقة إلى تجار كوجارات الكيسين**

وقس على ذلك التنوع تنوع المناخ. فهو يتنوع من المناخ الاستوائي إلى المناخ شبه الاستوائي.

وتتنوع الجغرافيا نفسها، فتمتد من الصحاري إلى المناطق الخصبة الغنية.

لكن على الرغم من هذا التنوع والتنشئت ثمة وحدة قائمة كذلك لا ريب فيها. وأولى علائم هذه الوحدة الرياح الموسمية التي تربط ربطاً وثيقاً بين كل تقاسيم المحيط. وهي تهب هباً يمكن رسم أنموذج للتنبؤ به نسبياً في بعض الأنحاء وفي بعض الأوقات من العام. وكل السفن، بقطع النظر عن



أصلها (عربي، تركي، كوجاراتي، مالاباري، بنغالي...)، التي ترغب - مثلاً - في أن تبجر من عدن إلى غرب الهند يكون عليها أن تغادر جماعياً في الوقت عينه تقريباً. وإذا ما نحن قصرنا الاعتبار على الهند، فإن أفضل الرياح الموسمية المعروفة هي الرياح الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية. ذلك أن الرياح الشمالية الشرقية تهب تقريباً من شهر نوفمبر إلى شهر فبراير. وهي تؤهل للسفر إلى الغرب وإلى الجنوب. أما الرياح الجنوبية الغربية، فهي تهب من شهر يونيو إلى شهر سبتمبر، وتؤهل للسفر من الشمال والشرق. وكان من نتائج ذلك أن أمسى موسم التجارة من كوجارات إلى عدن يتم من شهر سبتمبر إلى شهر مايو. أما بالنسبة إلى السفر من عدن إلى مالابار، فإنه يتم ابتداءً من شهر أكتوبر ونهاية بشهر فبراير. إذ تغادر السفن المبحرة من كوجارات إلى مالابار في شهر فبراير أو مارس.. وهكذا دواليك. لكن: «كان من المستحيل - مثلاً - الانتقال من البحر الأحمر إلى مالابار في موسم واحد. ولهذا السبب، كان على التجار أن يستريحوا في غرب الهند، سواء بكوجارات أو بمالابار، قبل استئناف الإبحار من جديد. ولقد كانت هذه الحقيقة ذات أهمية كبرى بالنسبة إلى ازدهار هذه المناطق وبالنسبة إلى تفاعل المسافرين من مختلف الأصول والثقافات والأديان» (للمزيد من التفاصيل، انظر: فيلرز 1952م).

ولقد كان لانتظام الرياح الموسمية أثر اقتصادي عميق؛ ذلك أنه كان بمكنة التجار المحليين أن يفرضوا الأسعار على الجوالين. وكان هذا الأمر يدفع التجار الأثرياء والأفضل تنظيمًا إلى ترك بعض أعضائهم (أعضاء الأسرة أو الجماعة) يقيمون باستمرار في بعض الموانئ المهمة، بحيث يمكنهم أن يقيتوا البضائع متى ما رخصت الأسعار أكثر مما يكونون بحاجة إلى فعل ذلك. وبعد أن توسع البرتغاليون نحو الشرق حلّوا هذه المشكلة لا بترك نائب عنهم أو مبعوث لهم في هذه المناطق للحفاظ على مصالحهم فحسب، وإنما بتشييد تحصينات قوية أيضاً.

وثمرة أخرى من ثمرات الرياح الموسمية تتمثل هذه المرة في أن عدداً من المدن / الموانئ الكبرى بأسيا - من عدن في الغرب إلى آتشيه في

الشرق - كانت تتوفر على طبيعة هجينة لساكنتها والتي تتمثل في أعضاء معظم جماعات الملاحة البحرية للمحيط الهندي، وأحياناً أخرى من آخرين من الخارج. والحال أن هذه الجماعات المتنوعة عرقياً واجتماعياً، والتي كانت تعيش في منطقة سكن مشتركة، كان لها زعيم قائد، وكانت تحتكم إلى أعرافها الخاصة. وكان اقتصاد هذه الموانئ/ المدن مرتبطاً إلى درجة كبرى بمنتوجية وولوجية الأراضي البرية الخلفية. وهكذا، كانت موانئ كوجارات تصدّر القطن والنيلة والملح الذي يأتيها من الداخل، بينما آشي وكلكوتا وبعد ذلك كوشين كانت تصدر الفلفل الأسود من أراضيها البرية الخلفية... وهكذا دواليك. هذا دونما حاجة منا إلى ذكر أن أغلبها كانت مراكز مهمة لعبور السفن. وسياسياً كانت لهذه الموانئ/ المدن درجة معينة من الاستقلالية، بل إن بعضها كان مستقلاً باستقلال تام.

**كان لانتظام الرياح الموسمية أثر اقتصادي عميق؛ ذلك أنه كان بمكنة التجار المحليين أن يفرضوا الأسعار على الجوالين، وكان هذا الأمر يدفع التجار الأثرياء والأفضل تنظيماً إلى ترك بعض أقاربهم وعمالهم يقيمون باستمرار في بعض الموانئ المهمة.**

لن نناقش هنا أصناف السفن التي وجدت في منطقة المحيط الهندي، والأمر نفسه يقال بالنسبة إلى بنائها وإلى البحارة الذين كانوا يعملون على ظهرها. أما المسافرون على هذه السفن فكانوا من التجار الصغار إما يتاجرون لأنفسهم أو نيابة عن

تجار آخرين مستقرين في البر. وقلما كان ربابنة هذه السفن أنفسهم مالكيها؛ وإنما كان ملاكها من التجار الأثرياء أو أعضاء من النخبة السياسية. وقد كان ربابنة أكثر السفن من التجار، وكانوا أيضاً نواباً عن مالكي السفن، وعادة ما كانوا أيضاً نواباً عن تجار آخرين مفوضين بالقيام بأعمالهم التجارية. ويبدو أن لا أحد من أعضاء فريق قيادة السفن كان يتلقى أجرته من ملاكها؛ وإنما كان يسمح لهم بحمل سلعهم التجارية مجاناً على متن السفن.

ولقد كان تعامل بيرسن مع القراصنة تعامل كياسة خاصة، «ومع ذلك، فإن الصعوبة الأولى هي تحديد من هو بالضبط القرصان»؛ إذ إن «ثمة فرقاً ضئيلاً بين التاجر والقرصان، وبين فريق قيادة السفينة وفريق



القراصنة». والحال أن هاتين العبارتين تقولان كل شيء بهذا الشأن. على أنه قد وجدت قرصنة خالصة، وكانت هذه القرصنة الصرفة متداولة في المحيط الهندي والخليج وشرق الهند وخليج سيام. وقد كانت سواحل الصين تحت حكم آل مينغ دائمة الاضطراب بفعل القراصنة خلال القرن السادس عشر الميلادي. وفي هذه الممارسات ما كانت ثمة تمييزات قومية بينة؛ إذ كان القراصنة البرتغاليون يهاجمون السفن البرتغالية مثلما يهاجمون الأسطول المحلي سواء بسواء. وفي غيرها من البلدان، كان للقرصنة الغربية أو الآسيوية نصيبها أيضاً.

### العناصر الموحدة

بقدر ما يتعلق الأمر بالوحدة والاستمرارية بين المناطق المحيطة بالمحيط الهندي، فقد تمت الإشارة من قبل إلى الرياح الموسمية والموانئ والسفن والبحارة. على أن ثمة عناصر إضافية تنبغي الإشارة إليها؛ ثمة بدءاً تجارة المسافات البعيدة بين وسط شرق وغرب الهند ومالكا وأتشيه. وكان الكوجاراتيون والأوروبيون يتاجرون بدءاً من شرق إفريقيا حتى مالكا، وكانت التجارة تربط المحيط الهندي بجنوب الصين والشرق الأوسط والبحر البيض المتوسط. هذا إذا ما نحن رغبنا في الإشارة فقط إلى بعض نماذج من هذه الاتصالات.

وثمة عامل توحيد آخر تمثل في انتشار توزيع المواد القادمة من بعض النواحي، سواء أكانت كمالية رفاهية أم حاجية ضرورية؛ ذلك أن الأحجار الكريمة والذهب والفضة ما كانت لتوجد إلا في مناطق قليلة. ومن ثمة، فإن الذهب كان يجلب أساساً من عالم المالايا، والحجارة الكريمة من سري لانكا وغولكونا وبورنيو، والتوابل والفلفل الأسود من مناطق مخصوصة: البسباسة، والمسك والقرنفل من جزر البهارات، والتوابل في شرق أندونيسيا، والقرفة من سري لانكا، والفلفل الأسود من مالايا وسومطرة وغرب الهند. وكان القطن يجلب من واحدة من ثلاث مناطق إنتاج كبرى بالهند: كوجارات، وكورمندل، والبنغال. أما إنتاج الحرير فكان مقتصرًا



على مناطق معدودة من الهند وإيران والصين. هذا مع العلم أن ثمة عامل توحيد آخر تمثل في القطن الذي كان يلبس من لدن ساكنة مجمل أنحاء المحيط الهندي.

ثم إن الأنشطة الدينية التي كانت تزاولها بعض الجماعات خلقت عنصر توحيد إضافي؛ ذلك أنه كان زعماء المجوس قد انتقلوا من إيران إلى كوجارات في القرن السادس عشر الميلادي ناسجين بذلك وشائج دائمة بين إيران وكوجارات. وكان الحجاج البوذيون القادمون من شرق وجنوب شرقي آسيا يحجّون إلى البقاع المقدسة المرتبطة ببوذا في شمال

الهند. أما الهندوس، فقلما كانوا يسافرون لأسباب دينية؛ إذ كان السفر عندهم بالبحر محرماً، إلا أنه كانت ثمة استثناءات؛ ذلك أنه كان على أولئك الذين يقطنون خارج الهند العودة إلى الوطن في مناسبات، أو على الأقل - إن أمكن - أن يموتوا ببلدهم. وقد سافر بعض البرهمانيين عبر البحر بغاية خدمة الجماعات الدينية القاطنة في ما وراء البحار، أما الغالبية العظمى من المسافرين فكانت من المسلمين؛

**كان القراصنة البرتغاليون يهاجمون السفن البرتغالية مثلما يهاجمون الأسطول المحلي سواء بسواء. وفي غيرها من البلدان، كان للقراصنة الغربية أو الآسيوية نصيبها أيضاً.**

ذلك أن الصلة القوية بين المسلمين من كل بلاد ما وراء البحار كانت تتم مع البحر الأحمر والحج إلى المدينتين المقدّستين مكة والمدينة. كما أسهم ذلك أيضاً في إقامة شبكة تجارة موسعة. فقد كان المسلمون من شبه الجزيرة العربية ومن كوجارات والبنغال يسافرون إلى شرق إفريقيا وإلى أندونيسيا. وقد نشروا الإسلام بقوة، مثلما تاجروا بمهارة. كما أن المؤسسة الكاثوليكية الرومانية نسجت وشائج عبر المحيط. إذ إن بعض الراغبين في الدخول إلى سلك القساوسة كانوا يتدربون على ذلك في دورة تدريبية بجنوا. وكانوا يغادرون الدورة بنظام أخلاقي موحد وبلغة مشتركة: اللاتينية. وقد تبعت اللاتينية صلات لغوية أقدم شأن العربية والفارسية، وهما لغتا الأغلبية من التجار المسلمين الذين كانوا يزاولون التجارة عبر المسافات

البعيدة. وخلال القرن السادس عشر الميلادي أمست البرتغالية لغة مفهومة على نطاق واسع في العديد من المناطق الساحلية. وأخيراً، ثمة عنصر رابط آخر صار متمثلاً في حضور البرتغاليين بحصونهم الشاطئية القوية عبر الساحل.

إن الوقائع والأفكار المعروضة في الصفحات أعلاه - فضلاً عن المزيد مما يمكن إبرازه وضربنا عنه صفحاً - قد نشأ عنهما استمرار ملحوظ ومقاومة للضغط في بلدان المنطقة بحيث لم تحدث فيها إلا تغيرات طفيفة على مدى زمن مديد. وقد اشتغل الأوروبيون والآسيويون في إطارهما وتحكمت فيهما هذه البنية. ولم تحدث التغيرات إلا في حقبة متأخرة في القرن الثامن الميلادي. دعنا الآن نركز النظر على بعض «مؤرخي البحار» والنظر في ما الذي صنعه بالمصادر التي استعملوها على أساس القاعدة التي تم عرضها في الصفحات السابقة.

### 3- بعض مقاربات دراسات المحيط الهندي وبعض نتائج دراسات المحيط الهندي

هاهنا نظرة موجزة عن بعض المقاربات الأكاديمية والنتائج المحصلة في حقل دراسات المحيط الهندي. على أن تقديماً مفصلاً للنتائج والأفكار المناسبة لهذا المقام سوف يتم الاحتفاظ به إلى مقالة لاحقة لهذا المقال ومتممة له.

تنبغي الإشارة إلى بيرسن في المقام الأول؛ فهو مؤرخ حقيقي عرض أفكاراً صلبة وطرح أسئلة وقدم نتائج (انظر أعلاه) في أعماله (بيرسن 1988، 2003 و 2005م). والحال أن أعمالاً مثل تلك التي قدم الرجل يمكن أن تقدّم لنا معرفة جادة حول عالم المحيط الهندي.

أما كنيث ماكفرسون (ماكفرسون 1984م) فقد اقترح أنموذجاً حول مناطق التقاطع الثقافي من أجل فهم التبادل الثقافي الذي حدث عبر منطقة المحيط الهندي، هذا المحيط الذي يعد «مركزاً مورست في نطاقه أنشطة

تجارية وبحرية شديدة التطور». وإذ اعترف بالتأثير العميق الذي أحدثته فيه بروديل، فإنه أجمل هذا النموذج في مفهوم «عالم» المحيط الهندي، مقترحاً «هوية محلية» مبنية عبر «الصلة بين التجارة البحرية وسيرورة من الانتشار الثقافي والتفاعل» تنتهي إلى تشكيل: «عالم بشري مغلق تصله طرق سيارة مشتركة في المحيط». وتامماً مثلما فعل تشوذري وبيرسن، فإن ماكفرسون ما نظر إلى المحيط الهندي بوسمه «منطقة ثقافية» ذات «وحدة»، وإنما دافع عن فكرة أن الممارسات الثقافية المتعددة - وقد وصلت بينها التجارة - هي التي تشاطرت؛ «بعض النقاط الثقافية المشتركة ميزتها عن شعوب من عوالم متجاورة» (فينك 2002م، 45).

**إن واحداً من أهم وأفصح وأنجح الدارسين الذين أسهموا في جعل دراسات المحيط الهندي حقلاً دراسياً مستقلاً ومزدهراً إنما كان كيرتي. ن. تشوذري**

والحال أن واحداً من أهم وأفصح وأنجح الدارسين الذين أسهموا في جعل دراسات المحيط الهندي حقلاً دراسياً مستقلاً ومزدهراً إنما كان كيرتي. ن. تشوذري (انظر بالخصوص تشوذري 1985 و1990م). وقد تشكّل تفكيره من أثر بروديل، وكان أن مزج ذلك برؤية / نظرية فالرشتاين عن «نظام العالم الحديث» (انظر أسفله) ومن تفسيرات أخرى. وقد أصاب لما شدد على أهمية التجارة البعيدة المدى

«الرأسمالية» (رغم أن هذا النعت قابل للمراجعة وللمناقشة) الدائرة على بضائع الرفاهية وعلى المواد الأساسية الحاجية التي وفّرت «وحدة تاريخية» داعمة للمنطقة. ونتيجة ذلك، تطور تقسيم العمل داخل المنطقة بين مختلف المراكز الحضرية ومراكز الإنتاج بمنطقة المحيط الهندي. وقد ميّز بين «أربع قوى توسعية ذات دلالة» من بزوغ الإسلام في القرن السابع الميلادي إلى بداية الاستعمار الأوروبي في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي؛ بروز الإسلام من الشرق الأوسط وانتشاره، الحضور الكثيف للحضارة الصينية والسلطة السياسية، الهجرة الموسمية للشعوب الرحل من وسط آسيا، و(بعد 1500م) التوسع البحري الأوروبي. والحال أن هذه «القوى»



تحتاج إلى شيء من المساءلة. ففي ما يتعلق بالحقبة ما قبل الإسلامية، يمكن للمرء أن يفكر في الفرس كذلك. وفي ما يخص أهمية الهجرة الموسمية للشعوب الرحل من آسيا الوسطى يمكن للمرء أن يعتقد بأنه تم تضخيمها إن لم يكن أمر الاعتداد بها خاطئاً. ففي مقال كتبه تشوذري - بعد كتابه الثاني - ركز على جوانب إضافية: «أنشأت وسائل النقل وتحركات الشعوب والتبادل التجاري والمناخ والقوى التاريخية عناصر انصهار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن الدين والأنظمة الاجتماعية والتقاليد الثقافية خلقت التمازج» (تشوذري 1933م، 9).

هذا وقد لخص غوين كامبل إنجازات تشوذري في مقدمة كتاب هاليوفسكي 2012م (كامبل 2012م) في: «أولاً؛ رؤية تشوذري لعالم المحيط الهندي عبر المدى الطويل، في اصطلاحات بروديل. وثانياً؛ مراجعته للتأويل الأوروبي المتمركز على الذات للإسلام بوصمه نظام اعتقاد يخفق المبادرة الفردية ويعوق النمو الاقتصادي. وثالثاً؛ في تطبيقه للمفاهيم البروديلية على المحيط الهندي أبرز تشوذري أهمية نظام الرياح الموسمية باعتباره مفتاحاً للإنتاج على المسافات البعيدة عبر الفضاء الجغرافي كله الواقع بين البحر الأحمر والصين. وقد مكن هذا الأمر - في المقابل - الباحثين من التحرر من الإكراهات الفكرية التي تفرضها الانشغالات المعتادة بـ«دراسة المناطق» وتاريخ «الدولة القومية». أكثر من هذا - وكما شدد تشوذري على ذلك - فإن الأمر يتعلق بالمركب العالمي الأول الفائت التطور الدائم لاقتصاد إنتاج وتبادل على مسافات بعيدة. والحال أنه في الوقت الذي ظهر فيه هذا المركب عهد الانتقال من تاريخ ما قبل المسيح إلى تاريخ ما بعده (فرانك 1998م)، أو بالتوازي مع بزوغ الإسلام منذ القرن السابع الميلادي (وينك 1996م)، أو ارتباطاً بالتطورات التي حدثت في صين القرن العاشر الميلادي (أبو لغد 1989م). على أن مناطق الإنتاج والاستهلاك العظمى - المتمثلة في الصين والهند والشرق الأوسط (المتمحور على بابل/العراق) - وطرق التجارة التي كانت تربط بينها؛ إنما هي التي شكلت قلب هذا المركب. وإذا حق أن حوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا كانا ذوي دلالة

واحدة بهذا الشأن، إلا أنهما كانا يشكلان منطقة ذات أهمية اقتصادية أقل. وقد كان تشوذري في طليعة تحدّ جدي من لدن مدرسة «آسيوية متمركزة على ذاتها» مجابهة للنظرة الأوروبية المتمركزة حول ذاتها والزاعمة بأن المجتمعات غير الغربية تملك عوائق مؤسسية وإيديولوجية تحول بينها وبين التجديد والنمو الاقتصادي، والتي ترى أنها شهدت على الركود والانهايار منذ حوالى القرن التاسع الميلادي إلى عهد مجيء الأوروبيين بدءاً من عام 1500م. وبالخصوص، تحدّي النظرة الأوروبية المركزية السلبية إلى الدور التاريخي للإسلام الذي قدّمه الأوروبيون على أنه جملة معتقدات وتطورات

**في ما يخص أهمية  
الهجرة الموسمية  
للسهوب الرحل من آسيا  
الوسطى يمكن للمرء  
أن يعتقد بأنه تم  
تضخيمها إن لم يكن أمر  
الاعتداد بها خاطئاً.**

في ما بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلاديين، ولكنها بعد ذلك فشلت في التطور. ومن ثمة، كانت حتمية انتصار الحضارة الرأسمالية المسيحية الأوروبية؛ ذلك أن الباحثين الآسيويين المتمركزين على ذواتهم يرون أنه - بعد انهيار ذي دلالة كبرى حدث بين حوالى القرن الرابع والقرن السادس الميلاديين - قد شهد الاقتصاد الآسيوي الشامل نمواً غير مسبوق، تميز بتنامي الإنتاج وبالتجارة

عبر المسافات الطويلة وبالهجرة، ودام إلى حدود وصول الأوروبيين إلى عالم المحيط الهندي في القرن السادس عشر الميلادي. وقد ربط تشوذري وآخرون بين هذه النهضة ويزوغ الإسلام؛ ذلك أن التجار المسلمين - بلا مرية - هيمنوا على كل شبكة التجارة عبر المسافات البعيدة في عالم المحيط الهندي في فجر حقبة العصور الوسطى؛ هذا بينما رأى وينك أن الإسلام خلق أساساً ألف عام من الحضارة الهندو إسلامية. هذا، وما كان من الممكن تفادي ترك بعض الأمور ذات الدلالة بهذا الشأن بعيدة عن تحدي تشوذري وغيره المبدع للنماذج التفسيرية النظرية السائدة؛ لكن عملهم شجّع على تطور نقاش متقدّم وصارم حول دور الإسلام في عالم المحيط الهندي بعد وصول القوى الأوروبية هناك والدور الذي تمّ لعبه في



الاقتصاد الشمولي لعالم المحيط الهندي بإفريقيا، وكما غير فهمنا لتاريخ الاقتصاد الشمولي ولدور الإسلام وغيره من المعتقدات الدينية غير الغربية. وإذا ما نحن قارنا بين عمل بورسنز ومقاربتة - لا سيما عمله لعام 2003م - فإننا نجد أن تشوذري استعمل العبارة أكثر لخلق الثمرة الفكرية الأقل، وأن غرضه لينحو نحو تعميم نظرة «شمولية» وطريقة في التفكير تعبر عن نفسها أكثر في كلمات يُقدّم فيها «استبصاراً» عن أشياء نعلمها منذ أزمان، سواء تعلق الأمر بيزوغ وتطور تجارة المسافات البعيدة في القرون الأولى من الإسلام، أو بالنظرة المركزية الآسيوية إلى ماكس فيبر وإلى أفكاره (والتي لا يمكن للمرء أن يشاطره إياها) حول المسيحية البروتستانتية والرأسمالية.

ثمة ممثل آخر للمدرسة التعميمية الشمولية في التفكير هو إيمانويل فالرشتاين. لقد عمل على مدار سنين عدة أستاذاً لعلم الاجتماع بجامعة كولومبيا، وفكره واقع تحت تأثير بروديل، ولكن أيضاً تحت تأثير فرانز فانون. وقد نشر الجزء الأول من كتابه «نظام العالم الحديث» عام 1974م، ولحق هذا الجزء جزءان آخران بعد ذلك. وإن دعواه الأساسية لهي أنه ليس من وجود اللهم إلا لعالم واحد، وقد رفض فكرة «العالم الثالث» ونظر إلى العالم باعتباره نظاماً واحداً يحكمه عالم الاقتصاد الرأسمالي. ومصادر هذا العالم الاقتصادي الرأسمالي قد تم امتصاصها من لدن هذا النظام بعيد القرن السادس الميلادي، وفي القرن التاسع عشر الميلادي تم امتصاص العالم بأكمله في هذا النظام. وقد قسم هذا النظام إلى مناطق ثلاث: المركز والمحيط الشبيه والمحيط الحقيقي. وللمركز درجة عالية من التطور التقني للإنتاج، وللمحيط أن يمد المركز بالمواد الأولية.

هذا وقد تأثر بعض الباحثين في المحيط الهندي ببعض أفكار فالرشتاين وتحليل الأنظمة العالمي وأدبيات الماركسية المحدثة الدائرة على النمو والتخلف. وقد أفادت مدرسة «الحوليات» الفرنسية بالمفاهيم النظرية وبالأسس القاعدية مثل التبادل غير المتكافئ واستغلال المركز

للمحيط والسوق العالمية. وهكذا أفاد فرنان بروديل وأصحاب الحوليات الباحثين بأفكار شأن التاريخ «الشامل» والمدى البعيد أو البنيات الثابتة وتاريخ المشكلة الموجهة. وألهم تحليل نظام عالم فالرشتاين الحديث أيضاً باحثين آخرين للتفكير في الاقتصاد العالمي لعالم المحيط الهندي ومكوناته المختلفة بعامة، وصلاته بنظام الاقتصاد العالمي الأوروبي، وبسيرورة الاندماج في الاقتصاد العالمي الرأسمالي بين أواخر القرن الثامن عشر الميلادي والقرن التاسع عشر الميلادي على وجه الخصوص. وقد شمل هذان المكونان اقتصادات جنوب إفريقيا والمدن / الدول السواحلية الواقعة

**رأى فالرشتاين أنه لا وجود إلا لعالم واحد، فقد نظر في كتابه: «نظام العالم الحديث»**

**1974م إلى العالم باعتباره نظاماً واحداً يحكمه نظام الاقتصاد الرأسمالي**

بالساحل الإفريقي الشرقي والإمبراطورية العثمانية وإيران ما بعدالصفوية وجنوب آسيا و«الأراضي الواقعة تحت الرياح» (جنوب شرقي آسيا) وبحار الصين لا سيما الصين واليابان.

والحال أنه ما كانت فقط قلة الباحثين الذين أنجزوا بحوثاً حول منطقة أو مناطق المحيط الهندي قد انتهت إلى الاصطدام مع مقاربة «نظام العالم الحديث» التي قال بها فالرشتاين؛ ذلك أن المعارضين دانوا «كونية

فالرشتاين الهيمنية» المعتمدة على تحليل أنظمة العالم، ودانوا أيضاً ما سماه فالرشتاين «نظرة مسح الطاولة»، مستدلين بذلك على أن التجمع الأفرو / آسيوي كان مرتبطاً ارتباطاً وطيداً بشبكة فريدة من تدفق البضائع ومن شبكات تبادل التجار حتى وصول الأوروبيين إلى ما وراء البحار وتوسعهم.

ولكي نختم هذا القسم الأول من المقال، نشير إلى أن بعض الحجج المضادة لفالرشتاين قد تم إعادة إنتاجها في ما بعد (فينك 2002م، 47-49)؛ ذلك أن البعض احتج بأنه ما بين عامي 1500م و1800م فإن العوالم الاقتصادية الثلاثة في «الشرق الأدنى» (الإسلام، الهند، الصين)



قد تمّ ضمّها إلى الاقتصاد الأوروبي العالمي. ونتيجة ذلك، فإن حوض المحيط الهندي برمته «قد تمّ ضمّه إلى... اقتصاد عالمي كبير ضخم مؤثر لكنه هش»؛ ذلك أن بروديل ميز تمييزاً دقيقاً بين «المراحل الدنيا» لتبادل اقتصادي عادي وروتيني معتاد، و«المؤدى العالى» لاقتصاد سوق رأسمالي عال ومتطور وُلد ما بين عامي 1400م و1800م. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ميز بين أربع مجموعات اجتماعية متفاعلة مترابطة: الاقتصاد، والسياسة، والثقافة، والتراتبية الاجتماعية؛ بدل حتمية فالرشتاين الاقتصادية الوحيدة الفريدة.

ثمة إضافة إلى هذه الأفاق «الشمولية المركزية» تتمثل في نقد موجّه لتصنيف فالرشتاين الاعتباطي التعسفي للمحيط الهندي بحسبانه منطقة خارجية، وهو التصنيف المبني على تأويل تبسيطي ومتهافت لـ«الحاجيات» و«الكماليات». فقد ركز العديد من الانتقادات على فكرة أن على المرء ألا يعتدّ فقط بالحجم؛ وإنما أيضاً الفوائد المتضمنة والسمعة المستثمرة في هذه المنتجات، مثلها في ذلك مثل اعتبار آثارها على الشغل. وفضلاً عن هذا، رغم أن فالرشتاين عدّ الفلفل الأسود منتجاً رفاهياً، فإنه كان حاجة ماسّة ضرورية بالنسبة إلى العديد في أوروبا والشرق الأوسط وشمال إفريقيا بدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي فصاعداً. وبالمثل، فإن المعادن النفيسة المستوردة مما وراء المحيط الهندي كانت ذات حيوية ميسّسة وأهمية حاجية أولى لحوض المحيط الهندي بدءاً من القرن التاسع الميلادي، حيث أسندت العملية التزامنية والمعقّدة لدول الأهالي واقتصاداتها ومجتمعاتها وثقافتها.

ثمة جواب رابع مشهور - لا سيما بين المؤرخين البحرين ودارسي الهند المسلمة (بما في ذلك مدرسة عليجار المسلمة القومية) - ويتمثّل في تصور «نظام عالم محيط هندي» مستقل أو «اقتصاد عالمي إسلامي» مركزه الهند، واقع تحت تأثير أوروبا لا محالة؛ لكنه ما كان ملحقاً بها بعد عام 1500م؛ ذلك أن الدور المحوري الذي لعبته الهند كان مستنداً



إلى موقعها الوسطي بين غرب آسيا من جهة، وشرق آسيا من جهة أخرى، وإلى مقدرتها على أن توفر للعرض بضائع تجارية شديدة التنوع واسعته (لا سيما المواد المصنعة) بأثمانٍ تنافسية عالية، وطلبها الذي لا نفاذ له للمواد المستوردة (لا سيما المواد الاستهلاكية والمعادن) من باقي آسيا، وهيمنة التجار الهنود التي تعود إلى الطابع الانقسامي للتجارة الآسيوية خلال القرن الخامس عشر الميلادي في مساق الانسحاب الصيني والعربي من تجارة المسافات البعيدة. ويذهب بعض الباحثين إلى حد التساؤل عن شكل «المركز» الحقيقي وعن شكل «المحيط»؛ وذلك باعتبار الاهتمامات المركنتيلية المعاصرة في إنجلترا والجمهورية الهولندية وفي مناطق أخرى.

**إن المعادن النفيسة  
المستوردة مما وراء المحيط  
الهندي كانت ذات حيوية  
مسيّسة وأهمية حاجية  
أولى لحوض المحيط الهندي  
بدءاً من القرن التاسع  
الميلادي، حيث أسندت  
العملية التزامنية والمعقدة  
لدول الأهالي واقتصاداتها  
ومجتمعاتها وثقافتها.**

أخيراً، ثمة جواب خامس صاغه المتخصصون في الحقبة ما قبل الاستعمارية المتأخرة والحقبة الاستعمارية المبكرة في جنوب آسيا. وهو يركز على أن تحليل نظام العالم الحديث يفشل في إدراك «وحدة» المنطقة ويطغى فيغطي على الدينامية التاريخية الداخلية (بما في ذلك النمو الرأسمالي) للمجتمعات غير الأوروبية. وإذ يدين هؤلاء النقاد المقاربة الفالرشتاينية باعتبارها «استشراقاً مقلوباً» لـ«ليبرالية أمريكية تاريخية»، فإنهم يدعون إلى مقاربة متعددة الأقطاب تركز على الطابع التعددي للعلاقات (فينك 2002م، 47-49).



## بيليوغرافيا

- Abu Lughud, J.: *Before European Hegemony, The World System A.D 1250-1350*, New York , Oxford,1989.
- Braudel, F.: *La Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*,Paris ,1949.
- Braudel, F.: *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*. London 1972.
- Campbell, G.: K.N. Chaudhuri.In: Holikowski Smith 2012, Xi-Xv.
- Chaudhuri 1985. Chaudhuri, K.N.: *Trade and Civilization in the Indian Ocean. History from the Rise of Islam to 1750*. Cambridge 1985.
- Chaudhuri, K.N.: *Asia before Europe, Economy and Civilization of the Indian Ocean from the Rise of Islam to 1750*, Cambridge ,1990.
- Chraudhuri, K.N.: The Unity and Disunity of Indian Ocean, History from the Rise of Islam to 1750, The Outline of a Theory and Historical Discourse, In: *Journal of World History*,4,1 (1993) 7.
- Das Gupta, A. and M.N. Pearson: *India and the Indian Ocean 1500-1800*, Calcutta 1987.
- Gunter Frank, A.: *Re Orient: Global Economy in the Asian Age*, Berkeley 1998.
- Halikowski Smith, S. C.A. *Reinterpreting Indian Ocean Worlds, Essays in Honor of Kirti N. Chaudhri*. Somerset 2012.
- Horton P. and N. Purcell: The Mediterranean and «the New Thalassology», In: *American Historical Review* 111,3 (2006) 723.
- McPherson, K.: Processes of Cultural Interaction in the Indian Ocean, An Historical Perspective, In: *The Great Circle* 6, (1984) 78-92.
- Pearson, M.: *Before Colonialism, Theories on Asian-European Relations 1500-1750*, Delhi-New York 1988.
- Pearson M.N.: *The Indian Ocean*, London 2003.
- Pearson, M.: *The World of the Indian Ocean, 1050-1800. Studies in Economy, Social and Cultural History*, Burlington 2005.
- Pirenne, H.: *Mahomet et Charlemagne*, Brussels 1937.
- Reeves, P., Broeze, F. and K. McPherson: *Ports and Port Cities as Places of Social Interaction in the Indian Ocean Region, A Preliminary Historical Bibliography*, Nedlands W.A. 1981.
- Villiers, A.: *Monsoon Seas, The Story of the Indian Ocean*. New York 1952.
- Vink, M.P.M.: Indian Ocean Studies and the 'New Thalassology', In: *Journal of Global History* 2 (2002) 41-62.
- Wallerstein, I.: *The Modern World System, 1-4*, New York, 1974-92.
- WINK, A. Al-Hind, *The making of the Indo- Islamic World*, Leiden 1966.